بنو زهرة الحلبيون

١

تمهيد

قدم التشيع في حلب

لما كان بنو زهرة الذين افردت للبحث عنهم هذا المقال من سلالة البيت النبوي الكريم ومن عظماء اشراف حلب القدماء الذين جمعوا إلى رئاسة الدين فيها نقابة اشرافها وتوارثوها كابرا عن كابر وهم من اعلام الشيعة الامامية ومنهم غير واحد انتهت اليه رئاسة المذهب، فقد رأيت أن اتكلم في هذا التمهيد عن قدم التشيع في حلب قبل الدخول في الموضوع جمعا بين بحثين لم يعقد لهما احد من الكتاب قديما وحديثا فصلا مستقلا وما الغاية التي اتوخاها إلا خدمة التاريخ

كان القرن الرابع الهجري مبدأ هبوب ريح الشيعة بعد سكونها المستطيل حيث قامت لهم في هذا العهد بآجال متقاربة دول وامارات نبه شانها، وضخم سلطانها، وسما مكانها، فالدولة البويهية. وعلويو طبرستان. وامارة بني حمدان. وبني صدقة وغيرها في المشرق. والدولة الفاطمية في المغرب ومصر وبعض ديار الشام. فكانت حلب احدى عواصم الامارة الحمدانية الشيعية

تنفس الشيعة الصعداء في عهد تلك الدول والامارات بعد أن ضربها الدهر ضرباته الأليمة، وشردها في الآفاق، وفرقها في بلدان الله الواسعة الشاسعة شذر مذر، محتجبة عن امتداد ايدي الظلمة اليها بحجب التقية

اصبحت حلب من بدء ذلك العهد وهي عاصمة الحمدانيين بعد أن

غلبوا عليها الاخشيديين ملوك مصر والشام مشابة الشيعيين ومختلف رجالاتهم ومستناخ رواحل الطارئين عليها من امهات البلدان القريبة والسحيقة ينساون اليها من كل حدب ، حيث يستمرءون المرعى الخصيب ، وينتجعون نجمة الراحة ، ويستبقون عبق الحرية المذهبية ، فعمرت بهم بيوت العلم ، وراجت فيهم سوقه ، ونفدت سلمه . ولم تكن الرحلة إلى حلب وإن كانت قد اصبحت عاصمة الشيعة وقفاً على الشيعيين فقط بل كانت مشرعا عذبا عاما وموردا مشاع المنهل بين الواردين اليه منهم ومن اخوانهم السنيين بفضل ترفيه الامير سيف الدولة الحمداني على العلماء كافة من أي مذهب كانوا ولأية ملة انتسبوا وانبساط كفه اليهم بالأعطيات ، واتساع صدره الرحيب الى كل من يوءم حضرته ويتوسط فناءه لكسب مغنم او فك مغرم . فكانت ايامه على الشيعة وعلى الخاصة منها ومن غيرها وعلى المملكة الحلبية غررا محجلة ، وعلى بلاد الاسلام معقلا منيعا . وعلى العلم والآداب العربية بيضاء نقية مباركة لا كما زعمه بعض الكتاب المتأخرين إذ قال "ولم تكن حكومة سيف الدولة مباركة على حلب بقدر ما صورها شعراوءه الذين كان يغدق عليهم هباته ليقطع السنتهم ويشغلهم عنه"

وليس من الإنصاف أن ندفع المستفيض او المتواتر من روايات مناقبه واعماله الحسان برواية الآحاد خبرا او خبرين إن برزناهما من التزوير والإختلاف فلا نراهما بمحبطين حسناته التي لا تحصى وهل من العدل أن نضرب بما كتبه الإمام ابو منصور الثعالبي من غرر آثاره واخباره وغيره من الأئمة عرض الجدار وجلهم يكتب للتاريخ ، وأن نصم الجم الغفير منهم ومن شعرائه بوصمة الدهان والرياء ونتمسك بخبرٍ إن صح فلم يكن ليسلم منه متأمر مهما كان محله من العدل

ومن يطلب الاستزادة من معرفة ايادي ذلك الامير العربي الجليل البيضاء على حلب وعلى العلم والعلماء فما عليه إلا أن يتصفح ما دوّنه منها الإمام الثعالبي في يتيمته ، وناهيك بها معرفا بفضله ، ومنوها بقدره ، ولم نعقد هذا الفصل لهذا البحث الذي تخرجنا الافاضة فيه عن الغرض المقصود

وبعد فقد تمتع الشيعة في هذا العهد بحريتهم المذهبية ، واصحروا بمعتقدهم غير موجسين خيفة من سلطان قاهر ، ولا متهيبين فتكة من ذي ابهة قادر ، وحسبك أن يسيّر الامير ابو فراس ابن عم سيف الدولة الحمداني قصيدته الميمية التي مستهلها

الدين مخترم والحق مهتضم وفيىء آل رسول الله مقتسم

يسيرها في البلاد ردا على ابن سكرة الهاشمي العباسي وفيها من النعي على بني العباس مثالب اوائلهم وهو لايتهيب سلطان اواخرهم ولهم الخلافة والامامة في بغداد ، والبقية الباقية من السلطان والصولجان ، وفيها من بيان مناقب العلويين والفاطميين مما لا يدانيهم فيه مدان من العباسيين ، ماتبهر حجته ، ويسطع برهانه ، ويذر آخرهم متعثرا باذيال الخجل مما جناه اولهم ، ويدع ابن سكرة المنحرف عن الفاطميين والمتهجم بخطل قوله ، وباطل شعره على ثلبهم قيد الإحجام والإفحام مسجلا عليه عار ذمه اهل بيت اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا

وإذا لم تكن الامارة الحمدانية السبب التام في ظهور امر الشيعة في حلب وما اليها فهي ولا مراء من اقوى الاسباب التي ايدت الشيعة ونشرت التشيع

قال بعض افاضل كتاب العصر «وكانت حلب في المذاهب الإسلامية تختلف باختلاف الدول عليها شأنها في ذلك شأن دمشق فتارة توالي عليا

واصحابه واخرى توالي غيره

وكان اهل حلب كلهم سنية حنفية حتى قدم شخص الى حلب فصار فيهم شيعية وشافعية وهو الشريف ابو ابراهيم الممدوح

وكان بنو حمدان وهم شيعة من جملة الاسباب التي نشرت التشيع في حلب وجوارها

هذا ملخص كلامه وفيه مالايخفى من التهافت . هل كان الشريف ابو ابراهيم وهو الذي ينتهي اليه نسب بني زهرة وهو شيعي من دعاة مذهبي الشيعة والشافعية فإن اراد هذا فذلك قول طريف وإن اراد أن في دعوته إلى التشيع تمهيدا للدعوة الشافعية وظهورها فكأنه بذلك كان داعية المذهبين فهو حسن ان ساعد عليه كلامه

وماذا يريدمن اختلاف حلب في موالاة علي وغيره باختلاف الدول عليها فهل يريد بذلك اتحاد الموالاة واندغام احد المذهبين بالآخر واضمحلاله البتة وانقلاب عقيدته الى عقيدة صاحب مذهب المتغلب فهذا مما نربأ بالكاتب عنه . وإن اراد أن الكلمة النافذة والحرية الكاملة والصراحة التامة بإظهار تلك الموالاة كانت تكون في جانب اصحاب مذهب الغالب فذلك حق والأ فإن حلب لم تتمحض في عهد المتسلطين عليها لموالاة مذهب احدهم وسترى أن تلك الصراحة بالموالاة كانت لهم حتى اليوم الذي لم تكن لهم فيه الامارة الحلبية

واما قوله أن اهل حلب كانوا كلهم سنية حنفية قبل قدوم الشريف ابي ابراهيم حلب فذلك مالا نوافقه عليه لأن الشريف لم يقدم حلب إلا في عهد الامارة الحمدانية الشيعية وفيه ظهر امر الشيعة وتقدم قدومه اليها كما هو الظاهر والمعقول .

واليك ما كتبه بعض علماء الشيعة عن قدم التشيع في حلب

قال صاحب رياض العلماء بعد كلام عن حلب ووصفها

وكانت من القديم محطا لرجال علماء الشيعة الامامية . واهلها ايضا من اسلم اهالي الشامات قلبا . واجودهم ذكاء وفضلا وفهما

وقال المولى محمد طاهر القمي الفاضل الثقة فيما نقل عن كتابه الموسوم بالفوائد الدينية «إن من البلاد القديمة التشيع مدينة حلب» وقال العلامة المجلسي في احد مجلدات بحاره في ترجمة الإمام رشيد الدين بن شهراشوب السروي من اعيان اعلام الشيعة في القرن السادس الهجري ومن الطارئين على حلب

وكان انتقاله الى حلب من جهة كونها في ذلك الزمان محط رحال علمائنا الاعيان بل كون الغالب على عامتها المماشاة مع الإمامية الحقة في طريقتهم وساوكهم لكون مملكتهم اذ ذاك بأيدي آل حمدان

وفي كلام المجلسي نظر فإنه إن أراد أن المملكة الحلبية كانت حتى عهد ابن شهر اشوب بأيديهم ففيه مخالفة صريحة لنص التاريخ ولإجماع المؤرخين فإنه لم يقل مؤرخ بامتداد ملكهم إلى هذا العهد بل المحقق أن دولتهم في حلب انتهت قبل انتهاء القرن الرابع الهجري وإن اراد غير ذلك فكلامه لا يفيده ولا يحتمله

اما استفحال امر الشيعة في حلب وما اليها فقد دام مؤيدا بقوة الاستمرار الطبيعية لا بتأييد دولة منهم حتى سنة تسع وسبعين وخمسمائة للهجرة وهي السنة التي تسلم فيها حلب سلما السلطان صلاح الدين الايوبي من صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن اقسنقر (١)

بل كان للشيعة الكلمة النافذة في حلب وامرتها بأيدي مخالفيهم ومناهضيهم

(١) عن ابي الفدا

إن صاحب حلب اضطر في مقاومته صلاح الدين يوم جاء حلب فاتحا إلى إجابة ما شرطه عليه الشيعة .

قال ابن كثير الشامي لما جاء صلاح الدين إلى حلب ونزل بظاهره اضطرب واليه وطلب اهل حلب إلى ميدان العراق واظهر لهم المودة والملاءمة وبكى بكاء شديدا ورغبهم في حرب صلاح الدين فعاهده جميعهم في ذلك وشرط عليه الروافض امورا منها اعادة حي على خير العمل ومنها أن يفوض عقودهم وانكحتهم إلى الشريف الطاهر ابي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني الذي كان مقتدي شيعة حلب فقبل منهم الوالي جميع تلك الشروط

ولما اراد بدر الدولة ابو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب حلب بناء اول مدرسة للشافعية في هذه المدينة لم يمكنه الحلبيون اذ كان الغالب عليهم حينئذ التشيع [1]

قال العلامة الفاضل محمد كردعلي في الجزء العاشر من المجلد السادس من مجلة المقتبس

وقد اتى صلاح الدين يوسف بن ايوب وخلفاؤه على التشيع في حلب وكان المؤذنون في جوامعها يؤذنون بحي على خير العمل . وحاول السلجوقيون الاتراك ثمرات القضاء على التشيع في هذه الديار (الحلبية) فلم يوفق !! لذلك الا الملك الناصر صلاح الدين كما ضرب على التشيع في مصر وكان على اشده فيها على عهد الفاطميين بحيث لا يكاد عالم مصري

---

(١) وكان ابتداء امرة سليمان بن عبد الجبار على حلب سنة ٥١٥ وانتهاؤها سنة ٥١٧ وذلك بطريق الإستنابة من عمه ايلغازي ابن ارتق واستردها منه لعجزه عن حفظ بلاده وذلك بتسليمه حصن الأثارب إلى الفرنج

يصرح بمذهبه اذ ذاك

اما قول صديقنا وكان على اشده فيها على عهد الفاطميين الخ فإنا لا نوافقه عليه وحسبك برهانا على تمكين الفاطميين مخالفيهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ما جاء في الجزء الثالث من صبح الاعشى للعلامة القلقشندي

«واما سيرتهم (الفاطميين) في رعيتهم واستمالة قلوب مخالفيهم. فكان لهم الإقبال على من يفد عليهم من اهل الاقاليم جل أودق ويقابلون كل احد بما يليق به من الإكرام، ويعوضون ارباب الهدايا باضعافها وكانوا يتألفون اهل السنة والجماعة ويمكنونهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من اقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك (بياض بالأصل) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم، ومذهب مالك والشافعي واحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب ابي حنيفة، ويراعون مذهب مالك، ومن سألهم الحكم به اجابوه»

واما قوله (بحيث لا يكاد عالم مصري يصرح بمذهبه اذ ذاك) فيكفي في رده قول عمارة اليمني وهو الذي قتل في حبهم وفي سبيل الوفاء لهم بعد انقراض دولتهم

أفاعيلهم في الجود افعال سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

وهل يطلب صديقنا برهانا على منح الفاطميين مخالفيهم حرية التصريح بمذاهبهم انصع من هذين البرهانين اللذين اوردهما القلقشندي في صبحه

واما السبب في استمرار قوة التشيع في حلب مع زوال دولتهم منها فالذي يظهر لي أنه مستند إلى امور

(الأول) ان الامرة الحلبية لم تتمحض الى متغلبة مذهب دون مذهب بل كانت بعد انقراض دولة بني حمدان مرة تقع في ايدي خلفاء مصر الشيعيين واخرى في ايدي مخالفيهم متداولة بينهم بازمنة متقاربة بحيث لا يتسع المجال لواحد منهما مناهضة ابناء المذهب الآخر

(الثاني) أن الحرب كانت عليها سجالا بين المتغلبين السنيين فلم يخل جوها المتغلب ليصرف الى مناهضة اهل مذهب هو احوج الى تألفهم وضم قوتهم الى قوته ارد عادية الطامعين في الاستيلاء عليها

(الثالث) تخوف المتغلب من قوات الدول الشيعية المحيطة بالمملكة الحلبية من المشرق والمغرب اذا امتدت يده بسوء الى اهل مذهبهم

وبعد فإنا نكتب ما نكتب لمحض العبرة وفلسفة التاريخ لا لغرض آخر وإنه ليؤلمنا وايم الحق تذكر تلك المنازعات المذهبية التي لم يسلم منها بلد في تلك القرون الخالية ، ولا كانت حربها الضروس محصورة بين الشيعة والسنة . وحسبنا ما يؤلم حديثه ما كان يقع من المشاحنة فاهراق الدماء بين ابناء السنة انفسهم من الشافعية والحنابلة في بغداد وغيرها من بلاد الاسلام وبين المالكية وغيرهم في الديار المغربية إن تلك العصبية على المخالف هي التي خلفت لنا الى اليوم آثار الانحطاط وذهبت للمسلمين بكل ريح وقوة فصيرتهم خولا بعد أن كانوا دولا والله غالب على امره

النبطية سليمان ظاهر